كيـــف نواجــه الصعـــــاب؟

(نظـــرة قـــرآنيـــة)

حسن الشيخ حسين

القرآن الكريم دستور حياة ومصدر تشريع، ونبراس هداية، ما فتئ العلماء يملأون خزائن معرفتهم من كنوزه، ويستنيرون بآياته الساطعة، وكما صرح القرآن في معجز بيانه عن تجلي بديع صنع الله في هذا الكائن البشري، فخلقه في أحسن تقويم، مكرماً إياه ومفضلاً على كثير مما خلق، ومسخراً له الكون بمشيئته؛ فقد كشف القرآن أيضاً عن نواحي الضعف في هذا الكائن، فقد خلق الإنسان في كبد ﴿**لقد خلقنا الإنسان في كبد**﴾ [البلد: ٤]. ﴿**.. من نطفة أمشاج**﴾ [الإنسان: ٢]. يبتليه ربه ﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات**﴾ [البقرة: ١٥٥].

ومع أن الإنسان استحق التكريم وحمل الأمانة، إلا أنه ﴿**خلق الإنسان من عجل**﴾ [الأنبياء: ٣٧]. يصيبه الهلع، فإذا مسه الشر جزع: ﴿**إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسّه الشر جزوعاً**﴾ [المعارج: ١٩ــ٢٠]. وكما قال علي (ع): "إذا استغنى بطر وإن افتقر وهن"، وهو بعد ذلك مسير بالإرادة التكوينية، وإن كان مخيراً بالإرادة التشريعية، ومن هنا منح الحرية التي قد تكون سبباً لسعادته أو لشقائه، ثم هو المسؤول بعد ذلك عما يكسب من حسنات ويكتسب من سيئات.

والإنسان بحسب تكوينه معرض لمواجهة جملة من المصاعب في مسيرة حياته، ومهما حاول الإنسان تجنب الاصطدام بالعقبات، فهو لا بد أن يعثر وتزل قدمه أو يكبو جواده، فتتنامى خبرة الإنسان وتزداد بقدر ما يقاسي من مشقات وينمو عنده عامل الوقاية، يقول ابن حزم: "كل نائبة من نوائب الدهر تصيب الإنسان ولا تقضي عليه، فهي قوة جديدة له".

وإذا استقرأنا الحياة من حولنا، وجدناها مترعة بالأمثال الحية، فمن هيلين كيلر إلى طه حسين والمعري، وغيرهم ممن صدمهم الدهر، فقدموا أروع العطاء وأثرى المنجزات وهم لا يتمتعون بالقدرة التي يملكها غيرهم، فبرزت فيهم العبقرية والنبوغ.

ولقد كشف القرآن الكريم عن جملة من الخصال يتصف بها الإنسان، فتكون سبباً لوقايته وصيانته من هذه الصعاب قبل وقوعها، إذ تجعله قادراً على تحملها وتجاوزها، بعد معرفة أسباب تلك المصاعب، وان أغلبها ناتج عن قصور الإنسان ومحدودية إدراكه، وقلة تجربته وتسرعه وقلة صبره؛ والقرآن حين أشار إلى نقائص هذا الإنسان، أراد تنبيهه إليها، وتوجيهه ليبادر إلى علاجها، وليساعده على معرفة نفسه، معرفة جيدة، فعندما يوقن الإنسان بأن فيه نقائص وعيوباً، يبادر إلى إصلاحها.

صور العلاج في القرآن

إن الوسائل التي قدمها القرآن الكريم للإنسان، ليعالج بها نفسه كثيرة، منها أن يدرك حقيقة نفسه، ويعرف مدى قدراته مما يساعده على التكيف مع العالم المحيط به، ﴿وفي أنفسهم أفلا يبصرون﴾ [السجدة: ٢٧]. ولقد ميزه الله بقوى يستطيع فيها أن يدرك الكون كله في الزمان والمكان، فبرجليه يذرع المكان ﴿وقل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وبيديه يتناول كل شيء يحتاجه، وبعينيه يبصر المادة، وبأذنيه يسمع الأصوات، وما نأى عن حواسه أدركه بالعقل والفكر، تلك قدرة هائلة منحها الخالق للإنسان، ولكن أنى لهذه القوى المادية والفكرية على أهميتها أن تقي الإنسان من الكوارث والمصائب إن لم تزود بالطاقة الروحية والمعنوية.

الإيمان وتقوية الصلة بالله

﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ [الجن: ١٣] والبخس هو النقصان والخسران المادي، أما الرهق فهو من قبيل الخسران المعنوي، والمشقة النفسية، كالقلق والإحباط والجزع والخوف وغير ذلك مما يعتري نفس الإنسان، لأن المؤمن يحتسب، فنفسه مطمئنة بذكر الله ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد: ٢٨].

ولأنه مع الله فهو لا يعرض عنه، لأن من أعرض عن ذكر الله عاش في ضيق وتعب، كما تشير الآية: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾ [طه: ١٢٤]. وهذا ما ابتلي به أهل عصرنا وحضارتنا المادية، حيث كثرت المشكلات النفسية والمصاعب؛ وينصح القرآن إنسان هذا العصر بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر:

﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر ❋ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ❋ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر: ١ـ٣].

لقد عرفنا أن في الإنسان مواقع ضعف، كما أن فيه مواقع قوة، فعليه أن يدرك الأولى ليتجنبها ويعرف الثانية ليستمد منها العون، ويشد بها أزره.

ومن أسباب ضعف هذا الإنسان، عجلته وتسرعه، وهذا ناتج عن غلبة الهوى، فينبعث قبل التدبر والحيطة والتزود بالحكمة والتعقل كما قال رسول الله (ص): "إعقل وتوكل"، والنفس إذا اشتهت شيئاً، أو رغبت في الوصول إليه أعماها الهوى عن إدراك مخاطر الطريق وعوائقه، فحب الشيء يعمي ويصم"، و"صاحب الحاجة لا يرى إلا قضاءها".

ومما يسبب للإنسان المتاعب في الحياة، هو بعده عن الله، لأن الإيمان به من أقوى الأسلحة في مواجهة الحياة، عند ذلك ندرك أن كل شيء في قبضة الله وكائن بمشيئته، فعندما نتقرب إلى الله بفعل الواجبات وترك المحرمات، يمنحنا الله طاقة روحية، تضمن لنا التغلب على كل ما يعترض سبيلنا من مصاعب، لأننا إذ ذاك نكون قد استعنا بالقوة الكونية العظمى، وكان الله معنا، فالله ولي الذين أمنوا، يخرجهم من الظلمات، حيث يعثرون ويصطدمون، إلى النور حيث يبصرون وينهضون من عثارهم، كما أن الله يدافع عن الذين آمنوا، لأن إرادتهم تتوحد مع إرادة الله ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وإذا التقت الإرادتان الإنسانية والإلهية، يتحقق النصر والنجاح.

التزام الحق والرغبة في الكفاح

إن في إيماننا بالحق، ضمانة لنجاحنا في الحياة وانتصارنا، لأن شريعة الحق لا يفلُّ لها حدّ، فالقلة في جانب الحق لن تهزم أبداً، ولأن للحق خصائص يستمد منها الضعفاء قوة، ويتخذ منها المؤمنون عبرة، وفي صفحات التاريخ قصص تبهر الأبصار، كما أن الإيمان بالحق يزيد قلب المؤمن صلابة فوق صلابته، ويجعل من حياة الجهاد والكفاح في نفسه لذة لا تعادلها لذة. ونتذكر ذلك المجاهد الذي كان في يده تمرات يتقوت بها، ولما سمع النبي (ص) ينادي للجهاد، ألقى من يديه تلك التمرات، قائلاً والله ما بعد هذه التمرات إلا الجنة ومضى واستشهد.

ولنذكر ذلك المجاهد الذي كان راغباً في القتال مع النبي (ص) وكان به عرج، وهو عمرو بن الجموح، فأعفاه النبي مراعاة له ورحمة، فقال إني أود أن أطأ بعرجتي هذه الجنة، ومضى واستشهد.

وهذا دليل على الاستهانة بالصعاب، إذا قوي إيمان المرء وصدق جهاده، ولا ننس موقف برير بن حضير الهمذاني وعبد الرحمن بن عبد ربه الأنصاري، حيث كانا يمزحان قبيل استشهادهما يوم العاشر من المحرم، ولا ننس قول برير: والله ما هي إلا ساعة نعالج القوم بأسيافنا ثم نعانق الحور العين.

لكن الوقوف إلى جانب الحق ليس بالأمر السهل، لأنه يتطلب من الإنسان أن يتجرد عن كل منفعة، أو مصلحة آنية، معرضاً عن اللذة العاجلة إلى اللذة الآجلة، وطريق الحق محفوف بالمكاره ولا يحتمله إلا أولو العزم الموقنون أنهم سيصلون بالرغم من معاناتهم، إلى تحقيق آمالهم والفوز بأهدافهم النبيلة.

العزم والإرادة

ولقد اقترن العزم بالعزيمة، وفي المصطلح القرآني، يرادف ما نتداوله اليوم من كلمة إرادة، فالعزيمة هي إرادة مع التصميم، لأن الإرادة التي هي من وسائل مجابهة الصعاب، لا تمثل الرغبة فحسب في فعل الشيء بل تعني الرغبة مقرونة بالإصرار، قال الشاعر:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ثم قرن القرآن الكريم العزم بالصبر فوجه الله سبحانه الخطاب إلى رسوله (ص): ﴿**واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وكذلك قول لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿**واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾ [لقمان: ١٧]. أي أن الصبر من الأمور التي تعزى إلى العزم، وهو شدة الإرادة وقوتها وصلابتها، وهكذا نتدرج في مواجهة الصعاب خطوة بعد خطوة، فالوعي والإدراك أولاً ثم الإيمان بالله، ثم التسلح بالعزم والإرادة، ولكن بقي علينا أن نضمن استمرار هذه الحالة وديمومتها كي لا تضعف إرادتنا فنكبو، وهنا يأتي دور الصبر الذي هو من أقوى الأسلحة في مواجهة الصعاب.